لماذا فشلوا في مجال الأخلاق؟

أجل لماذا فشلت الاشتراكية الثورية العربية في إشاعة «القيم» والفضائل الأخلاقية، وفي صيانتها وتثبيتها؟

إن القيم والفضائل لا تسود المجتمع، ولا تشيع في حياة الناس ولا تخط مجراها في سلوكهم العام والخاص، بالأوامر العسكرية، ولا بالقرارات الثورية. ولكنها تحتاج إلى تربة صالحة تنمو فيها بذورها، وتمتد فروعها، وتزهر غصونها وأوراقها.

١ ـ وأول ما يحقق هذه التربة هو «العقيدة الصالحة» التي ترجع إليها أخلاق الأمة، وينبثق عنها سلوكها. وإذا ضعفت عقيدة أمة ما فقد أصبحت كالشجرة المنبتة من أصولها، المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار. ومثل هذه الأمة لا بد أن تصاب بالتفكك والانحلال المفضيين حتماً إلى الانهيار.

وعقيدة أمتنا هي الإيمان بالله وبرسالة الإسلام، وبالدار الآخرة فكلما قوينا جانب هذا الأيمان فقد قوينا معه جانب الأخلاق، وإذا سمحنا لرياح الشك والتشكيك ـ بله الإلحاد والإنكار ـ أن تهز شجرة الإيمان أو تزعزعها، فقد زعزعنا معها الأخلاق قطعاً.

لهذا كانت الخطوة الأولى في دعم الأخلاق وغرس الفضائل والمثل العليا، تتمثل في غرس معاني الإيمان بالله وباليوم الآخر في أعماق الضمائر[1]، وغرس الشعور بالمسؤولية أمام الله سبحانه تعالى، وتعاون كل مؤسسات التربية والتعليم،

(١) انظر كتابنا: الإيمان والحياة، فصل «الإيمان والأخلاق».

من دار الحضانة إلى الجامعة، وكل أجهزة التوجيه والتثقيف والترفيه من الكتاب إلى الصحيفة إلى الإذاعة: المسموعة والمرئية، إلى المسرح والخيالة وغيرها ـ على إيقاظ المعاني الربانية في الفطرة الإنسانية، من توحيد الله تعالى ومحبته وخشيته ومراقبته والتوكل عليه، واليقين بما عنده ورجاء رحمته والخوف من عذابه.

بهذا التوجيه الدائم القائم على أفضل الأساليب، وأقوم الوسائل، تتزكى الأنفس، وتتربى الضمائر، وتستنير البصائر، وتتصل القلوب بربها وهاديها، وتتزود بخير زاد، وهو التقوى.

أما إذا ظلت المؤسسات والأجهزة تربط المجتمع بالطين لا بالدين، وبالخلق لا بالخالق، وبالأرض لا بالسماء، وبالدنيا لا بالآخرة، وبالمعدة لا بالروح، وبالمتاع الأدنى لا بالمثل الأعلى... فلن يثمر ذلك إلاَّ مجتمعاً أكبر همه الشهوات، ومبلغ علمه إرادة الحياة الدنيا، وإيثار المنافع الشخصية العاجلة ولو على حساب الأمة والدين والقيم العليا.

٢ ـ ولا بد مع التربية والتوجيه من شيء آخر. لا بد من تشريع يحمي الأخلاق من عوامل الدمار، ومن العابثين بالقيم، والمتاجرين بكل فضيلة.

لا بد من تشريعات تفرض صيانة الحرمات، وحراسة الآداب، ورعاية التقاليد الصالحة، واحترام أوامر الله تعالى ونواهيه، وتطهير الجو الاجتماعي من دواعي الإغراء، ومثيرات الغرائز، والعوامل المحرضة على الفساد أو الميسرة له والمعينة عليه. لا بد من عقوبة كل منحرف يجاهر بالفاحشة ويحرض عليها، ولا بد من مصادرة كل فن أو أدب يزين للناس الرذيلة والسوء.

لا بد من سلطان التشريع والقانون بجوار سلطان التربية والتوجيه، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أما أن تفتح علناً حانات الخمور، وتيسر جهرة محلات الفجور، وتترك الشوارع ملأى باللحم البشري يباع في الشوارع ويعرض في الطرقات، ويرخى

العنان للصحف والإذاعات والتليفزيونات والسينمات وشتى أجهزة الإعلام والترفيه، تهدم في ساعات ما يبنيه التوجيه في شهور، باسم الحرية الشخصية فهذا أوسع باب لتدمير القيم، وتحطيم الأخلاق، ونشر عدوى الرذيلة في كل مكان.

والعجيب أن الثوريين يضغطون كل الضغط على الحرية الفكرية والحرية السياسية، كما بيناه من قبل. ولكن في مقابل ذلك الضغط العنيف من الثورية الاشتراكية على «حرية الأفكار» نجدها تطلق العنان لـ «حرية الشهوات».

ومن ثم نفقت سوق المجون والتحلل من قيود الحشمة، وفضائل الحياء والعفاف والإحصان. وبلغ عبث الأزياء و «المودات» أقصاه. وأصبحت شوارع العواصم العربية الكبرى معرضاً لـ «اللحم البشري» الذي فرض الله أن يصان فابتذلوه في الطرقات والأسواق. فإذا ارتفع صوت ينادي بتغيير هذا المنكر، ووقف هذا السيل المدمر، قيل له: هل تريدون أن نحجر على الناس، أو تفرض الأخلاق بالقانون أو نجعل وراء كل امرأة شرطياً يراقب زيها وسيرها؟ (!!)

وهذا ـ لعمري ـ أعجب العجب! لقد حجروا على الحرية الفكرية والسياسة، باسم الحرية الاجتماعية أو المصلحة الوطنية. أفلم يكن أولى أن تضبط «الحرية الجنسية» باسم «القيم الأخلاقية» و «التعاليم الإلـهية»؟! أفتمنع «حرية الحقوق» وتطلق «حرية الفسوق»؟!

ويبدو أن الثورية المتسلطة تريد بتسهيل سبل الشهوات الدنيا، وإشباع نهم الغرائز الحيوانية السفلى، أن تمنح الشعوب المقهورة لوناً من «التعويض» تنفس به عن كبتها السياسي والعقلي. وإن شئت قلت: هو نوع من «الإلهاء» المتعمد عن قسوة الواقع الذي تعيشه، ومرارة الحياة التي تعانيها.

ولهذا لاحظ المراقبون لما يجري في ديارنا، ازدياد حجم العبث واللهو الحرام بعد نكبة ١٩٦٧ خاصة.

حتى إن «الأفلام» الجنسية المكشوفة، والمجلات الخليعة الداعرة، التي لم يكن يسمح لها من قبل أن تعرض أو تباع، قد رفع الحظر عنها، وليس لهذا

التصرف تفسير إلاَّ شغل الشعوب عن الشعور بالمأساة الكبرى، التي غشيهم ليلها الأسود الكئيب الطويل.

ومن روائع الإعجاز أن نجد النبي ﷺ يشير في حديث صحيح له ـ إلى الارتباط بين «الاستبداد السياسي» المسلط على الرقاب والأجساد وبين «الانحلال الاجتماعي» الذي يظهر ـ أول ما يظهر ـ في تبذل النساء، وخلعهن لزينة الحياء، يقول رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهم: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس... ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت[1] المائلة! لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها...».

ضرورة القدوة الصالحة:

ج ـ ثم إن من المقرر في عالم التربية والأخلاق: أن للقدوة أثرها العميق في أنفس الناس، فالإنسان يتأثر بالفعل المرئي، أكثر مما يتأثر بالقول المحكي، ولهذا قالوا: لسان الحال أفصح من لسان المقال، بل قالوا: حال رجل في ألف رجل، أبلغ أثراً من مقال ألف رجل في رجل!

ويزيد هذا التأثير ويتضاعف، إذا كان الفعل أو الحال أو السلوك من شخص وضعته الأقدار في موضع الإمامة والرياسة والقدوة للناس، حتى قيل قديماً: الناس على دين ملوكهم. وقد يؤيد هذا ما ورد في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، حين دعاهم إلى الإسلام، وحملهم في آخرها ـ إذا رفضوا الدعوة ـ إثمهم وإثم رعيتهم.

ومن أجل هذا روي عن الحسن البصري والفضيل بن عياض وغيرهما هذا القول الحكيم: لو كانت لي دعوة مستجابة، لدعوتها للسلطان، فإن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً.

---

(١) البخت إبل عظيمة السنام، والحديث كأنما يصف نساء عصرنا وما يضعن فوق رؤوسهن من «باروكات» وما يصنعن في شعورهن من «فورمات».

ومن غير شك أن يفسد بفساده خلق أكثر، فإن عدوى الفساد أسرع.

زار بعض الوفود من الأقاليم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز فسألهم: كيف عمالنا (ولاتنا) فيكم؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إذا طابت العين (المنبع) عذبت الأنهار (الفروع)!.

وفي بعض عصور الانحراف الإسلامية، لام بعض كبار الموظفين كاتباً أو عاملاً عنده على خيانة ظهرت منه، فكان رد هذا الكاتب: كلنا خائن، أنا خنتك، وأنت خنت الوالي، والوالي خان الخليفة، والخليفة خان الله! ولو استقمتم وأدّيتم لاستقمنا وأدينا!

فكم تتلوث الحياة، ويختل المجتمع، إذا شم الشعب رائحة الفساد والانحراف تنتشر من قصور القادة والزعماء الجدد، كما كانت تنتشر قديماً من قصور الملوك والزعماء البائدين.

لقد تغيّر الاسم والعنوان، وبقي الجوهر كما كان: ملوك من غير تيجان! وصدق شوقي حين قال: البلشفية (الشيوعية) قيصرية: لها من القيصر جبروته وسرفه، وليس لها جلاله وشرفه!

أهمية الحرية للأخلاق:

د ـ ثم إن الأخلاق الفاضلة تحتاج إلى مناخ ملائم تنمو فيه وتترعرع وتثمر، ولا يحقق هذا المناخ مثل الحرية.

ففي ظل الحرية تنمو فضائل الصدق والشجاعة، والصراحة، وقول الحق والشعور بالمسؤولية، والاهتمام بأداء الواجب، والطموح إلى معالي الأمور، والثقة بالنفس وبالآخرين، وغيرها من مكارم الأخلاق.

وأما في ظل الاستبداد والإرهاب والطغيان، فلا تنمو إلاَّ رذائل الكذب والتجسس والغيبة والنميمة وسوء الظن والملق والنفاق، وازدواج الشخصية، وعدم المبالاة، وإهمال الواجبات، والذل والانحناء والسلبية.

ولقد أشار المرحوم الزعيم عبد الرحمن الكواكبي إلى كثير من هذه الرذائل التي تنمو في ظل الإرهاب والضغط في كتابه «طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد».

أعرف كثيراً من المدرسين يدخلون صفوف الدراسة بشخصية، ويعيشون خارجها بشخصية أخرى، هم مع التلاميذ اشتراكيون ثوريون، متحمسون، يرددون الشعارات، ويحفظون الكثير من عبارات التقدمية والثورية وغيرها من «أكليشهات» القوم، وهم في خارج الصف أو خارج المدرسة ناس طيبون معتدلون! فإذا جاء أحد التلاميذ يسأل أحدهم بعيداً عن قاعة الدرس وفي أمن من الرقباء: هل أنت مؤمن بهذا يا أستاذ؟! قال: يا ابني، هذا أكل عيش هذا ما تريده الحكومة!

فماذا يكون رأي التلميذ في أستاذه؟ وماذا تكون ثقته بما يلقنه إياه من حقائق العلم الأخرى ما دام يرى أنه لا يعلمه ما يعتقد صوابه، بل ما تريده السلطة؟

هـ ـ ولا بد مع ذلك كله من استقامة الأوضاع الاقتصادية، واستقرار العدل الاجتماعي، وأخذ كل ذي حق حقه، فإن الأوضاع الاقتصادية المعوجة، وشيوع الظلم الاجتماعي، واختصاص قلّة بالتمر، وكثرة بالنوى، وتقديم من يستحق التأخير، وتأخير من يستحق التقديم ـ من شأن هذا كله أن يشيّع كثيراً من الرذائل الاجتماعية، مثل الحسد والبغضاء وسوء الظن، والسلبية، وعدم المبالاة، وعدم الحرص على المال العام، وغير ذلك من خصال السوء التي يولدها الظلم والبغي من بعض الناس على بعض.

ولهذا يجب على كل مجتمع حريص على الأخلاق أن يعمل على إزالة المظالم، وإقامة الموازين القسط بين الناس، وقد أشار النبي ﷺ، إلى ذلك حينما قال لأحد الآباء وقد خص أحد أبنائه بشيء من ماله: أتحب أن يكون أبناؤك لك في البر سواء؟ قال: نعم، قال: فسوِّ بينهم، وقال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم.

ومعنى هذا أن التمييز بينهم فيما يستحقون من عطاء، يولد العقوق للأب من بعضهم، كما يورث التحاسد ـ من جهة أخرى ـ بينهم.

الخطأ الأكبر للاشتراكيين الثوريّين

إن كل ما ذكرناه من تفسير وتعليل لفشل الاشتراكيين الثوريين العرب في شتى المجالات، وكافة الميادين المادية والمعنوية، يلقي أمامنا ضوءاً كاشفاً على «العلة الأولى» لهذا الفشل المتراكم، وبعبارة أخرى: يوضح لنا الخطأ الأكبر الذي اقترفته الاشتراكية العربية، وترتب عليه كل تلك الخسائر التي منيت بها أمتنا في تلك المرحلة الدقيقة والحاسمة من تاريخها.

إن الخطأ الأكبر الذي سقطت فيه الليبرالية العربية من قبل، هو نفسه الذي تردت فيه الثورية الاشتراكية من بعد. لقد أخطأت منذ البداية، منذ الخطوة الأولى. بل مما قبل الخطوة الأولى، أعني من بدء التفكير فيها والتحضير لها... لم يكن خطأ تصرف أو خطأ موقف، بل كان خطأ اتجاه.

يقودون أمة لا يعرفونها:

كان خطأ الثورية العربية الأول أنها لم تعرف حقيقة الأمة التي تقودها. وتضع الحلول لمشكلاتها... لم تع تاريخ هذه الأمة، ولم تسبر غورها، ولم تنفذ إلى روحها، لتعرف حقيقة أفكارها ومشاعرها واتجاهاتها.

وتصور طبيباً ـ أو رجلاً وضعته الأقدار موضع الطبيب ـ يصف علاجاً مفصلاً لمريض، لم يفحص حالة جسمه، ولم يسمع دقات قلبه، ونبضات عروقه، ولم يعرف أسباب مرضه وأدواره وتطوراته، وما قُدِّم له من علاجات سابقة، وما كان أثرها عليه. ومعنى هذا كله أنه لم يعرف طبيعة مريضه، وطبيعة مرضه، فلم يحسن

ـ بالتالي ـ تشخيص الداء، ولم يوفق في وصف الدواء.

كل ما كسبه المريض المسكين قائمة طويلة بأصناف من الأدوية الجاهزة والمستحضرة، أكثرها مستورد وأقلها محلي، بعضها يشرب، وبعضها يبلع، وبعضها يحقن. . منها ما لا يضر ولا ينفع، ومنها ما ينفع ولا يضر، من المقويات والمشهيات، ومنها ما يضر ولا ينفع.

والخلاصة: أن جسم هذا المريض أصبح حقلاً للتجارب، كل طبيب جديد يجرب فيه حظه، ويختبر فيه علمه، ويمتحن عبقريته. .

والنتيجة: أن هذه التجارب والوصفات الميسرة لا تزيده إلا ضعفاً، ولا تفيده إلا تأخر الشفاء، وتمكن الداء.

والسبب في ذلك أنها وصفات وعلاجات مبنية على غير معرفة بالمريض الذي يرجى علاجه، وما كان بهذه الصفة لم يكن طباً ولا علماً، وإنما هو خبط على غير هدى، وسير في غير طريق، مع أمتنا المسكينة.

وهكذا كان حال القادة والحكام والزعماء الثوريين والعقائديين.

لقد نسي أو تناسى أولئك الثوريون اليساريون ـ كما نسي قبلهم الليبراليون اليمينيون ـ أنهم يصفون علاجاً وحلولاً لأمة مسلمة، أمة أرفع قيمة عندها هي الإيمان، وأسمى غاية لديها هي رضا الله، وأجل كتاب تهتدي به هو القرآن، وأعظم إنسان تقتدي به هو محمد عليه الصلاة والسلام.

جهل هؤلاء وأولئك ـ أو تجاهلوا ـ أن هذه الأمة رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ـ ﷺ ـ نبياً ورسولاً، وبالقرآن الكريم هادياً وإماماً.

جهلوا ذلك أو تجاهلوه، وذهبوا يقرأون في تاريخ الأمم الأوروبية، ويدرسون تطوراتها وأوضاعها ونهضاتها، فوجدوا أن فكرة القومية «كان لها دورها في إنهاض تلك الشعوب وتوحيدها وفصلها عن سلطان الكنيسة فنادوا بقومية عربية علمانية على غرار القوميات الأوروبية، بعضها عن اقتناع وحسن نية، وبعضهم عن تدبير وتخطيط من جهة قوى شريرة لا تضمر للإسلام وأمته إلا شراً.

القومية العلمانية كبديل عن الإسلام:

وكان الشيء الخطر في هذه الدعوة إلى «القومية العربية» أنهم جعلوها بديلاً عن الإسلام ورسالة محمد[1] مع أن العروبة بغير الإسلام، تصبح لفظاً بلا معنى، وجثة بلا روح.

ولقد ذهب فلاسفة القومية العربية إلى أن أعظم العوامل المكونة لها: اللغة والتاريخ، سلمنا، فماذا يبقى في لغة العرب لو جردناها من القرآن الكريم والثقافة الإسلامية ـ بمختلف فروعها وألوانها؟ هل يبقى غير الشعر الجاهلي؟ وما قيمة هذا الشعر في تكوين أمة عظيمة واحدة؟

وماذا يبقى في تاريخ العرب، لو أننا فرغناه من تاريخ الإسلام، وأمجاد المسلمين، وماخلفه أعلامهم وعلماؤهم وأبطالهم من روائع؟ هل يبقى فيه إلا حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرها من أيام العرب، وغارات بعضهم على بعض؟ مضافاً إليها بعض قصص الكرم والشجاعة والنجدة التي لا تكون تاريخاً له اعتبار؟

البحث عن مضمون للقومية العربية:

على أن القومية وحدها لا تكفي لنهضة أمة، وإشباع حاجاتها المادية والروحية والفكرية.

وهذا ما شعر به القوميون أنفسهم في بلاد العرب، فقد أحسوا بأن قوميتهم تعاني «أزمة فراغ» وخاصة بعد أن أفرغوها من القيم الإسلامية، والمعاني الإسلامية، واتجهوا بها وجهة علمانية مجردة.

---

(١) بهذا العنوان «القومية العربية كبديل عن دين الله ورسالة محمد» قدم الدكتور محمد البهي بحثاً إلى المؤتمر الخامس! «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر، هاجم فيه قومية ساطع الحصري وميشيل عفلق وجورج حبش... ولم يتيسر لنا الاطلاع عليه بعد.

ولهذا أخذوا يبحثون عن شيء سموه «المحتوى» أو «المضمون» أو «الرسالة» ـ للقومية العربية. واتخذ حزب البعث شعاره المعروف «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»!!

العثور على الاشتراكية كمضمون للقومية:

ما هي هذه الرسالة؟ أو ما هو ذلك المحتوى أو المضمون؟

يقول القوميون: إنه لا بد أن يكون محتوى أو مضموناً اقتصادياً اجتماعياً سياسياً. . ثم ذهبوا هنا وهناك في «صالونات» الفكر الغربي و«دهاليزه» فعثروا على «الاشتراكية» التي كانت «موضة» العصر في الغرب، الذي عانى من شرور الرأسمالية الكبرى، كما عانى من قبل ويلات الإقطاع، وظنوا أنهم عثروا على «خاتم سليمان» ومفتاح الأسرار بهذه الاشتراكية، فقالوا: قد وجدنا المحتوى والمضمون والرسالة. . . الرسالة الخالدة!!

تطور الاشتراكية عند دعاة القومية:

ولم تكن الاشتراكية ـ التي نادى بها دعاة القومية العربية في أول الأمر ـ أكثر من نظام اقتصادي مرن متكيف مع حاجات كل أمة. . كما يقول ميشيل عفلق، قال: وليس بعسير على العرب إذا ما تخلصوا من كابوس الشيوعية أن يهتدوا إلى اشتراكية عربية مستمدة من روحهم، وحاجات مجتمعهم، ونهضتهم الحديثة، تقتصر على إيجاد تنظيم اقتصادي معقول عادي، يحول دون الأحقاد والنزاعات الداخلية، ودون استثمار طبقة لأخرى[1]. . إلخ.

وكانت حركة «القوميين العرب» في بداية ظهورها تدعو إلى لون من الاشتراكية، ليس أكثر من ضرب من العدالة الاجتماعية.

---

(١) في سبيل البعث ص ١٩٧.

وكانت مصر الثورة ـ قبل قوانين يوليو ١٩٦١ ـ تنادي بما أسمته الاشتراكية الديمقراطية التعاونية».

ثم جاء طور آخر اتخذت فيه الاشتراكية عند دعاة العروبة صورة «عقيدة شاملة» أو «أيديولوجية ثورية متكاملة» للحياة وللمجتمع.

وقال الرزاز ـ فيما نقلناه من قبل ـ: إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي، فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق... فالاشتراكية مذهب للحياة... إلخ.

وفي مقدمة الكتاب الذي نقلنا عنه كلام الرزاز هذا، يقول البعثيون: إن الاشتراكية لا تقتصر على الناحية الاقتصادية، بل يجب أن تطبع كل جوانب المجتمع الأخرى من ثقافية واجتماعية وسياسية، فتتخذ شكل نزعة تقدمية تحررية عامة شاملة؛ إذ لا يمكننا أن نتصور مجتمعاً اشتراكياً صحيحاً تتحقق فيه العدالة في توزيع الثروة، في حين يبقى نظام التعليم فيه مثلاً رجعياً، يؤكد قيم المجتمع المتخلف، وينشر الأفكار المحافظة، ويقدس التقاليد البالية!!».

ولا شك أنهم يعنون بما ذكروه القيم الإسلامية، والأفكار الإسلامية، والتقاليد الإسلامية، ولكنهم أذكى وأدهى من أن يذكروا ذلك بصراحة، حتى لا يصطدموا بمشاعر المسلمين وعقائدهم علانية.

قالوا:

«ومن المبادئ الأساسية الأخرى في الاشتراكية العربية هو «الثورية» في معالجة قضية المجتمع. ومبدأ الثورية هذا مشتق من «النظرة العلمية» التي تعتمدها الحركة الاشتراكية في البحث والتحليل. ومن ذلك نستنتج أنه لا بد من الصراع العنيف، والانقسام الحاد في المجتمع. واستناد علمية التغيير ـ شطر الاشتراكية ـ على هذا الصراع بالذات، لا بد لكي يتحقق المجتمع العربي الاشتراكي من تجمع القوى التقدمية وتنظيمها وتوجيهها حسب العقيدة الاشتراكية، والهجوم على الرجعية والأوضاع المتخلفة..».

لم تعد الاشتراكية العربية ـ إذن ـ مجرد نظام اقتصادي مرن، كما قال عفلق من قبل. ولم تعد مجرد «شيء من العدالة وشيء من اللوق في تطبيق القانون» كما قال أكرم الحوراني عام ١٩٤٩ في مجلس النواب السوري.

بل أصبحت مذهباً للحياة وعقيدة شاملة تؤمن بالصراع الطبقي العنيف، وتعتمد عليه في تغيير المجتمع كله: قيمه وأفكاره وتقاليده، لا اقتصاده فحسب.

وكذلك قررت حركة القوميين العرب منذ سنة ١٩٦٤ «اعتماد الاشتراكية دون سواها. واعتماد الثورية، والإيمان بالصراع الطبقي كحقيقة علمية لا بد منها للتطبيق الاشتراكي»[1].

وفي هذه العبارات، نجد الفكرة الماركسية، والروح الماركسية واضحة تمام الوضوح.

بيد أن الحركة في الفترة الأخيرة ازدادت توغلاً في أعماق الماركسية، وبخاصة الأجنحة المتطرفة فيها.

وفي مصر قال الميثاق: إن الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم... كما أكد أن الحل الاشتراكي حتمية تاريخية.

واستغل الشيوعيون الذين انضموا إلى الاتحاد الاشتراكي، واندسوا إلى كل أجهزة التوجيه والإعلام ـ مثل هذه العبارات في الميثاق، ليضفوا الطابع الماركسي على الاشتراكية المصرية.

وفي هذا الخط نفسه كتب أمين الدعوة والفكر في الاتحاد الاشتراكي ـ كمال رفعت ـ عدة مقالات، تعطي الاشتراكية صبغة العقيدة الشاملة.

---

(١) من تقرير حركة القوميين العرب في بيروت المنشور في صحف لبنان أيار مايو سنة ١٩٦٤، وقد تبنت الحركة المذهب الماركسي بوضوح، كما هو بين من صحيفتها «الحرية» في بيروت، ومن بياناتها ومواقفها مع المنظمات الفدائية، وموقف أتباعها من حكام الجنوب اليمني.

وكتب الأستاذ المستكاوي يقول: الاشتراكية هي مسألة عقيدة اعتنقها الشعب العربي كله، من حدود إيران في الشرق، حتى مشارف المغرب على المحيط الأطلسي[1]... إلخ.

أمة عربية ذات رسالة ماركسية!!

بهذه الاشتراكية المتمركسة حاول البعثيون والناصريون والحركيون أن يملأوا الفراغ العقائدي في قوميتهم العربية العلمانية. وتخيلوا أنهم حلوا العقدة بهذا المضمون الاشتراكي الملفق المستورد. وأنهم وجدوا به السائل المناسب ليملأوا به كأس عروبتهم التي أفرغوها من الشراب الطبيعي الأصيل للأمة العربية، وهو الإسلام.

ولكن هذا المركب الكيماوي المصنوع في معامل بلاد أجنبية بعيدة، لم يلبث ـ كما قال أحد الكتاب ـ أن فار وتفاعل، حتى فجر الكأس وتحطمت في أيدي الشاربين!

وسر ذلك أن هذا المضمون أو المحتوى الاشتراكي الثوري لا يلائم أمة لها عقيدتها الشاملة، وأيديولوجيتها المتميزة، ورسالتها الكاملة، كأمة العرب التي دانت بالإسلام، وعاشت به، وعاشت فيه، وعاشت له.

ولقد رأينا أحد الدارسين للقومية ـ والموالين لها أيضاً ـ في دراسة له عن «القومية والمذاهب السياسية[2]» يستخلص في خاتمتها أربع نتائج، من أهمها:

«أن المضمون السياسي والاجتماعي للحركات القومية في البلاد النامية لا يمكن أن يتبلور وترسخ أقدامه، إلا إذا كان منبثقاً من دافع هذه البلاد، ومتمشياً مع حاجاتها الملحة، ومن ثم يجب أن تتوفر فيه:

---

(١) من كتاب «في التطبيق الاشتراكي» نشر الدار القومية.

(٢) تأليف د. عبد الكريم أحمد، وهو بحث قدم أصلاً كرسالة للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من كلية الحقوق بجامعة القاهرة.

أ) أن يتضمن أسس الثقافة القومية والتراث القومي، وبخاصة ما يحتويه هذا التراث من معايير وقيم روحية ومعنوية.

ب) أن يلبي الحاجات الحقيقية لشعوب هذه البلاد.

جـ) أن يتضمن «رسالة» خاصة للشعب الذي يتعلق به الأمر، يشارك بها ركب الحضارة الإنسانية، وتأكيد القيم التي يعتنقها، ودفع عجلة التقدم البشري».

ولكن الثوريين العرب ـ الذين اتخذوا القومية العربية شعاراً، واتخذها بعضهم ستاراً ـ لم يراعوا هذه الشروط فيما اختاروه من مضمون أو محتوى لقوميتهم. وذلك حين استوردوا الاشتراكية الثورية المتمركسة، وجعلوا منها أيديولوجية أو عقيدة شاملة، تصب في قالبها الأمة، وتصبغ بصفتها كل نواحي حياتها.

وبهذا تنفصل الأمة عن ثقافتها وتراثها الأصيل، وبخاصة ما يحتويه هذا التراث من معايير وقيم روحية ومعنوية.

وبهذا أيضاً لم يلب هذا المضمون حاجات الأمة الحقيقية، لأن حاجة الأمة ليست اقتصاداً فحسب، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، كما جاء عن المسيح عليه السلام، على أنهم ـ باشتراكيتهم ـ لم يشبعوا أيضاً الحاجات الاقتصادية للأمة.

وأخيراً لم يتضمن محتواهم الاشتراكي «رسالة» خاصة لأمة العرب، تساهم بها في الحضارة الإنسانية. لأن الاشتراكية العلمية ليست رسالة العرب الخاصة، فما هم إلا متسولون لها ويتطفلون على موائدها.

إنما رسالة العرب الخاصة هي رسالة الإسلام التي ارتبطوا بها ارتباطاً عضوياً. بلسانهم نزل قرآنها، ومن أنفسهم بعث رسولها، وفي أرضهم قامت قبلتها.. وعلى حبها شب الصغير، وشاب الكبير.. ليس للعرب إذن رسالة غير رسالة الإسلام الخالدة، تلك الرسالة «التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن،

وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة[1]».

أمّا الاشتراكية فلم تكن رسالة العرب بالأمس، وليست رسالة العرب اليوم، ولن تكون رسالة العرب في المستقبل. وانتصار الاشتراكية في بلاد العرب ليس انتصاراً لرسالتهم، وإنما هو انتصار للاشتراكية العالمية، تضيف به بلداً إلى بلادها، ومجداً إلى أمجادها.

إنكار النسب الأوروبي للقومية!

ومما يدهش له المرء أن نجد بعض الكاتبين في «القومية» يحاولون عبثاً إنكار الأصل الأوروبي للدعوة القومية العلمانية، وإلحاقها بشجرة النسب العربية الإسلامية! ونسي هؤلاء أن الإسلام ـ وإن بعث به رسول عربي، ونزل به قرآن عربي، دعوة إنسانية عالمية، تخاطب الناس جميعاً، وتجعل رابطة الإيمان فوق كل رابطة، وأخوة الإسلام فوق كل أخوة، فالرسول ﷺ يقول عن سلمان الفارسي: «سلمان منّا أهل البيت» على حين يبرأ من عمه الكافر أبي لهب، الذي نزل فيه قرآن يتلى على مر الدهور: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

وعمر بن الخطاب يقول: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله!

والشاعر العربي المسلم يعلن اعتزازه بالإسلام لا بالعروبة ولا بالقبيلة فيقول:

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه ... إذا افتخـروا بقيـس أو تميـم!

أما أن القومية بضاعة أوروبية، فذلك ما يشك فيه دارس يحترم منطق العلم ووقائع التاريخ.

---

(١) من وصف الإمام الشهيد حسن البنا لرسالة الإسلام في مقالة له.

ولقد بينا من قبل كيف نشأت القومية التركية، والقومية العربية، ودور يهود «الدونمة» هناك، ونصارى الشام هنا، وعلاقة الماسونية بنشأة القوميتين ودعاتهما. ودور «الدعاية الأمريكية» من قديم جداً في ظهور الحركة القومية العربية، ودور «الحلفاء» بعد ذلك في تغذيتها، ولا يزال هذه العوامل أثرها، وإن اختلفت الأسماء، والواجهات، من الكلية الانجيلية السورية إلى الجامعة الأمريكية، ومن الجمعيات المسيحية السرية إلى الأحزاب العقائدية العلنية.

وإذا غضضنا الطرف عن أصل القومية ونسبها، ونظرنا ـ فقط ـ إلى ثمراتها ونتائجها في دنيا المسلمين، فماذا نجد؟

نجد قومية طورانية تركية متعصبة تؤدي إلى تنفير العرب، ونقمتهم على إخوانهم في الدين: الأتراك، ومطالبتهم بالانفصال التام عن تركية، وتهيئة التربة المناسبة لنمو بذور القومية العربية التي خطط لها أجانب ماكرون.

كما تنتهي هذه القومية التركية بإلغاء الخلافة، وعلمنة تركية، وعزلها عن العرب والعالم الإسلامي، وعزلها كذلك عن تراثها الأدبي الإسلامي المكتوب كله بالحروف العربية.

ومن ثمرات الدعوة القومية بين العرب والأتراك: اقتتال العنصرين الإسلاميين كما ذكرنا، من قبل.

ولعل أقرب ثمرات القومية في بلاد المسلمين ما تعانيه شقيقتنا الكبرى «باكستان» العزيزة من محنة كادت تمزق أوصالها وتدمر وحدتها، وتشمت بها المتربصين من أعداء الإسلام، وخاصة من أشد الناس عداوة للذين آمنوا: «اليهود والذين أشركوا».

وما ذلك إلاَّ من بركات الانفصاليين من دعاة «القومية البنغالية» الذين حملوا لواء هذه العصبية الجاهلية، في دولة قامت من أول يوم على أساس «الرابطة الإسلامية».

هل بين الاشتراكية والإسلام نسب؟

وكما حاول بعضهم إنكار النسب الأوروبي للدعوة القومية العلمانية، حاول آخرون ـ ولعلهم الأولون أيضاً ـ إنكار النسب نفسه للاشتراكية الثورية، وجاهدوا وجهدوا لكي يلبسوها عباءة أو عمامة، ويجعلوا منها اشتراكية عربية إسلامية! مستغلين بعض نقاط التلاقي التي يتفق فيها الإسلام والاشتراكية، مثل فكرة «التكافل الاجتماعي»[١] أو «التوازن الاقتصادي» أو «العدالة الاجتماعية»[٢]، أو «تقريب الفوارق»[٣] أو «مقاومة الفقر»[٤] أو «محاربة الاحتكار» أو «منع اختصاص طبقة بالمال» كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم أو شرعية تدخل الدولة لتحديد الأسعار ومنع التحكم والاستقلال»[٥] إلى غير ذلك من الأفكار.

ونحن نقول: أنه بالرغم من وجود نقط التقاء بين الإسلام والاشتراكية، فهذا لا يعطي أحداً الحق في أن يجعل الاشتراكية إسلامية أو يجعل الإسلام اشتراكياً.

وذلك لأسباب تجعل التناقض جذرياً بين الإسلام والاشتراكية وإن صبغ ظاهرها بطلاء عربي، أما هذه الأسباب فهي:

أولاً: الاشتراكية وإن التقت مع الإسلام في بعض النقاط تخالفه ويخالفها في نقاط أكثر وأهم وأعمق، إنه يخالفها في الأساس والمصدر، وفي الغاية والوجهة، وفي الوسائل والأساليب، وفي الخصائص والمميزات.

إن أساس الإسلام رباني محض، ومصدره الوحي الإلـهي الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ليس لمحمد ﷺ فيه إلاَّ التلقي والتبليغ والبيان، وليس للناس إزاءه إلاَّ السمع والطاعة، وحسن الفهم، وحسن التطبيق.

---

(١) راجع أنواع هذا التكافل العشرة في كتاب «اشتراكية الإسلام» للسباعي.

(٢) راجع «العدالة الاجتماعية في الإسلام» لسيد قطب.

(٣) راجع «الإسلام والأوضاع.. الإسلام والمناهج... الإسلام المفترى عليه» للغزالي.

(٤) راجع كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام».

(٥) راجع «الدولة والحسبة عند ابن تيمية» للمبارك.

أما الاشتراكية فأساسها بشري بحت، ومصدرها عقل الإنسان المحدود، وتجاربه القاصرة المتأثرة بالزمان والمكان، وبعوامل الوراثة والبيئة، وبالميول والنزعات الشخصية والأسرية والطبقية والاقليمية والجنسية وغيرها من المؤثرات على تفكير الإنسان وشعوره وسلوكه.

ثم إن الإسلام ـ وإن كان من مقاصده تحقيق الحياة الطيبة للناس، التي يشبعون فيها من جوع، ويأمنون من خوف، ويتعلمون من جهل، ويأخذون حظهم العادل من ثروة أوطانهم ـ يسعى إلى غاية قصوى، وهدف أبعد من هذه المقاصد المادية الدنيوية.

إن الإسلام يريد من الناس أن تكون وجهتهم الله والدار الآخرة، ولا يقفوا عند حد التمتع بطيبات الدنيا وشهوتها، إن الدنيا خلقت للناس، ولكن الناس لم يخلقوا للدنيا، إنما خلقوا لله وللآخرة.

إن الحياة الطيبة مطلوبة ـ في نظر الإسلام ـ طلب الوسائل، لا طلب الغايات، فهي معوان على طاعة الله وعبادته التي خلق لها المكلفون جميعاً.

أما الاشتراكية فهي مادية دنيوية، ليس لها غاية أبعد من الدنيا، ولا أفق أوسع من شهوتي البطن والفرج، ولا تعني بوجود فوق المادة، ولا بعالم وراء الطبيعة المنظورة، ولهذا ليس لله ولا للآخرة في تعاليمها نصيب.

وفضلاً عن خلاف الإسلام للاشتراكية في الغاية والوجهة فهو يخالفها في مناهجه ووسائله، حتى في النقاط التي يلتقي فيها بالاشتراكية إجمالاً، فإنهما يختلفان في التفصيل اختلافاً بيناً، ويسلك كلّ منهما إلى هدفه سبيلاً غير سبيل الآخر، فالإسلام له طرائقه الخاصة في تحقيق التوازن والتكافل والعدل، وفي محاربة الفقر والاحتكار والاستغلال، كما أن له نظرته المتميزة إلى الملكية الفردية وأسبابها وشروطها وقيودها وآثارها، وإلى الملكية الجماعية ومجالها وحدودها.

وفوق ذلك كله، فإن للإسلام خصائصه ومميزاته التي ينفرد بها في معالجاته لكافة القضايا والمشكلات البشرية الفردية والاجتماعية، المادية والمعنوية.

فالنظرة الإسلامية تتسم بالوضوح، والشمول، والعمق، والتيسير، والتوازن، والتكامل والتناسق، وملاءمة الفطرة، ومراعاة الواقع، مع تأكيد النزعة الإنسانية، والقيم الأخلاقية، والمزج بين الأهداف الروحية والوسائل العلمية، ولعلنا نوضح شيئاً من ذلك إن شاء الله في حديثنا عن الحل الإسلامي في الجزء التالي.

ثانياً: إن الاشتراكيين العرب لم يصدروا عن الإسلام أصلاً، ولم يستفتوه أو يأخذوا رأيه فيما حددوه من اتجاه، وما اتخذوه من قرارات، وما أقدموا عليه من خطوات، بل هم يعدون الرجوع إلى الشرع الإسلامي تخلفاً ورجعية، ولا يرضون بتحكيم ما أنزل الله، ويعتبرون الدعوة إلى ذلك «ثورة مضادة» لهم، رسالة الدين عندهم أن يكون تابعاً ومعيناً لهم على تحقيق أهدافهم الثورية، وأمداد الشعوب بالطاقة الروحية اللازمة لهم في بناء ما يريدون، في هذا الإطار، وفي هذه الحدود يقبلون الدين وينوهون به، أما أن يتخطى هذه الحدود ليكون موجهاً للحياة، وقائداً للمجتمع، وأساساً للحكم، وضابطاً للتفكير والسلوك... فهذا ما يرفضونه ولا يسمحون به بحال.

وقد «أفتى» أحد الرؤساء العرب نفسه! بعد أن خطا خطواته الاشتراكية الثورية، فقال: إن العدل هو شريعة الله!

ولم يسأل السيد الرئيس نفسه ـ كما لم يسأله أحد طبعاً ـ : من الذي يحدد أن هذا عدل، وهذا غير عدل؟

إن الرأسمالية الغربية تزعم أن العدل في نظامها الفردي واقتصادها الحر.

وإن الشيوعية الماركسية تباهي بأن العدل ليس إلاَّ في نظامها الجماعي، الذي تحكمه دكتاتورية البروليتاريا.

فأيهما المحق؟ وأيهما المبطل؟ ومن ذا الذي يفصل بينهما، ويحكم لهذا أو ذاك، أو يحكم عليهما معاً؟

أما نحن فنقول: لمثل هذا بعث الله النبيين ﴿**وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾.

فلا يمكن أن يفصل في هذه القضايا الكبيرة عقل بشري محدود، وهنا يأتي دور هداية السماء، ونور الوحي ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾.

وبهذا جاء الوحي بالضوابط التي لا بد منها لمعرفة حقيقة العدل وأصوله وقواعده، وكثير من فروعه وجزئياته أيضاً، لتكون أمثلة يقاس عليها.

ولولا هذه الضوابط الشرعية لقال كل من شاء ما شاء، واستطاع الرأسماليون واليمينيون العرب أن يقولوا أيضاً: ما نسير عليه نحن هو العدل، والعدل شريعة الله!

ولهذا فكل من قال: «إن العدل هو شريعة الله» قلنا له: إن شريعة الله هي العدل!! أي من أراد أن يعرف العدل حقاً فليرجع إلى حكم الشريعة.

نعم، إن العدل هو شريعة الله فيما لا نص فيه، وفيما ترك لاجتهاد المجتهدين، أما ما حكمت فيه النصوص، فليس لمؤمن إلاَّ أن يقول: سمعنا وأطعنا، موقناً بأن شريعة الله هي العدل كل العدل.

فالنصوص هي الحاكمة على عقول البشر مهما تكن رتبتهم، وليست العقول أبداً هي الحاكمة على النص المعصوم.

فهل نفذ الاشتراكيون العرب شريعة الله المحكمة، التي هي العدل قطعاً، قبل أن يقولوا: إن عدلهم ـ فيما تصوره عقولهم وأهواؤهم ـ هو شريعة الله؟ هل حرموا الربا وجمعوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؟ هل حاربوا الإلحاد والإباحية، وتخلوا عن «العلمانية» اللادينية؟ هل منعوا الخمر والميسر والخلاعة والتهتك، وأقاموا حدود الله في أرضه؟ هل نشروا أخلاق الإسلام وآداب الإسلام، بدل الآداب الغربية والتقاليد الغربية؟ هل أقاموا التعليم والثقافة والإعلام على أساس المفاهيم الإسلامية، والقيم الإسلامية، بدلاً من المفاهيم والقيم الاشتراكية؟

هل أقاموا الجيوش على أساس من الروح الإسلامية والتوجيهات الإسلامية؟؟

بل هل رضوا ـ مجرد رضا ـ الاحتكام إلى الشريعة المنزلة؟؟

كل ما نراه منهم، وما نعلمه عنهم أنهم لا يؤمنون بالكتاب كله، بل يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فما كان موافقاً لاتجاههم ومشاربهم وأفكارهم آمنوا به، وما خالفها اتخذوه وراءهم ظهرياً.

وإذن لا مجال للتمسح بالإسلام وبشريعة الله من أناس لا يحترمون شريعة الله، ولا يحكمونها في كل شؤونهم، وهم يسمعون آيات الله البينات تدمغ بالكفر والظلم والفسوق كل من لم يحكم بما أنزل الله.

ثالثاً: إن الاشتراكية الثورية العربية بالمفهوم الذي شرحناه من قبل ـ نقلاً عن مصادر الاشتراكيين العرب أنفسهم ـ ليس في وسعها أن تلتقي مع الإسلام، كما ليس في وسع الإسلام أن يلتقي معها.

ذلك أنها لم تعد ـ كما قلنا ـ مجرد حلول جزئية مؤقتة لمشكلات اقتصادية واجتماعية قائمة، بل أصبحت عندهم مذهباً للحياة، وعقيدة للمجتمع، وأيديولوجية للدولة.

وهذا معناه أنها لا بد أن تصطدم بالإسلام اصطداماً مباشراً، لأنه هو ذاته مذهب وعقيدة وأيديولوجية شاملة ولا يرضى إلاَّ أن يسيطر على المجتمع، ويوجه الحياة كلها من أدب «دخول المرحاض» إلى بناء الدولة، وإقامة الخلافة.

ولا يتصور مسلم ـ يؤمن بأن الإسلام كلمة الله ـ أن يقبل هذا الدين العظيم يوماً لنفسه بالعيش خادماً أو ذيلاً للاشتراكية أو لأية أيديولوجية أرضية وضعية، لأنه دائماً «سيد» بطبيعته، وهو يعلو ولا يعلى.

إن الإسلام ليس «موظف تشريفات» مهمته الترحيب بكل قادم من المذاهب والأيديولوجيات، جاءت مرة من اليمين، وأخرى من اليسار.. وهو أعظم وأكبر من أن تقتصر رسالته على إصدار فتاوي التبريرات، وخطب التبريكات!!

إن الاشتراكية الثورية تريد من الإسلام أن يكون له هامش الحياة ويكون لها صلبها، وأن يكون له «الصدف» الرخيص، ولها هي «اللؤلؤة» الثمينة، أن يكون له المساجد والزوايا، وتكون لها المدارس والجامعات والدواوين والمحاكم والأندية والنقابات، وكل أجهزة الحكم والتشريع، والتثقيف والتوجيه، ولكن الإسلام لا يقبل هذا أبداً.

على أن الإسلام لو رضي بالمسجد وحده ما تركته له الاشتراكية، لأنها تريده مسجداً اشتراكياً لا مسجداً إسلامياً، تريد مسجداً يوجهه الحزب العقائدي أو الاتحاد الاشتراكي، لا مسجداً حراً يقول كلمة الإسلام ويصدع بها في وجه كل متكبر جبار.

إن كل مرفق في ظل الاشتراكية الثورية لا بد أن يكون موجهاً منها: الاقتصاد موجه، والإعلام موجه، والديمقراطية موجهة، والدين أيضاً لا بد أن يكون موجهاً!

فإن أبى أحد من دعاته وبدا منه «النشوز»، ورفض أن تكون كلمة الله هي السفلى، وكلمة «ماركس» هي العليا، فالويل له من كهنة الدين الجديد، دين الوثنية المادية!

رابعاً: وأخيراً نضيف هنا أمراً له اعتباره، يجعل الاشتراكية العربية ـ أو المسماة عربية ـ بعيدة كل البعد عن الإسلام، وهو: أن الأحزاب الاشتراكية العقائدية الثورية الكبرى في عالمنا العربي يقودها أناس غير مسلمين، من أمثال ميشيل، وجورج، ونايف، وغيرهم من القادة الفكريين لعرب آخر الزمان!

فليس معقولاً أن يتبنى هؤلاء النصارى ـ من تلاميذ المبشرين الأمريكيين وأشباههم ـ الدعوة إلى اشتراكية إسلامية!

سيقول بعض الناس: إن هناك زعماء غير هؤلاء يدعون إلى الاشتراكية الثورية، وهم من المنتسبين إلى الإسلام، فإذا كانت اشتراكية الأولين غير إسلامية،

فما الذي يمنع أن تكون اشتراكية الآخرين إسلامية؟ وبخاصة أننا كثيراً ما رأينا بين الفريقين خصومات واتهامات ومشادات عنيفة؟

والذي أودّ أن يتضح للقارىء أن الخصومات التي تحدث بين الفريقين ليست لأن هؤلاء مسلمون وأولئك نصارى، فالدين معزول عن هذه المعارك تماماً، وليست لأن اشتراكية هؤلاء تخالف اشتراكية أولئك، فالخلاف بينهما ليس أيديولوجياً ولا فكرياً، بل هو خلاف سياسي، خلاف على مواقف وأشخاص، لا على اتجاهات وأفكار، حتى رأينا الحزب الواحد ـ كالبعث ـ يختلف على نفسه، ويتهم بعضه بعضاً.

وبهذا كله يتأكد لنا ولأبناء قومنا جميعاً: أن الاشتراكية التي يعتنقونها مبدأ وعقيدة ويتخذونها أيديولوجية ونظاماً، إنما هي مبدأ أجنبي، وعقيدة دخيلة على الأمة المسلمة، وأيديولوجية مستوردة من غير أرضها، وكل محاولة لإلباسها عباءة عربية، أو جبة وعمامة إسلامية، هي محاولة محكوم عليها بالفشل، لأنها تحاول أن تجمع الشيء وضده، وتثبت الأمر ونقيضه، أشبه بمحاولة إخوان الصفا وغيرهم فلا أسلمت الفلسفة، ولا تفلسف الإسلام، والحقيقة أن المحاولات التوفيقية بين دين محمد وفلسفة أرسطو، أو التلفيقية بين الإسلام والاشتراكية لا يرضاها مسلم صحيح الإسلام، ولا اشتراكي عميق الاشتراكية.

وكل دارس للاشتراكية والإسلام يعلم هذا.

ومن هنا يؤكد الأستاذ برنارد لويس أن الليبرالية والفاشية والوطنية والقومية، والشيوعية والاشتراكية كلها أوروبية الأصل، مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة، التي تنبع من تراب المنطقة، وتعبّر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة»[1].

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ١٧٩.

لا حاجة بأمتنا إلى الاستيراد:

في علم الطب لا يجوز أن يفتح بطن المريض وتجرىٰ له عملية جراحية إذا كان يمكن علاجه ببعض الأقراص أو المشروبات، كما لا يجوز أن يلجأ إلى الأدوية المركبة المعقدة إذا أمكن علاجه بالأدوية البسيطة الطبيعية، أو بحسن التغذية والتهوية ونحوها.

وفي علم الاقتصاد «لا يلجأ الفرد إلى الاستدانة وله رصيد مدخور، قبل أن يراجع رصيده، فيرى إن كان فيه غناء، ولا تلجأ الدولة إلى الاستيراد، قبل أن تراجع خزائنها، وتنظر في خاماتها ومقدراتها كذلك... أفلا يقوّم رصيد الروح، وزاد الفكر، ووراثات القلب والضمير، كما تقوم السلع والأموال في حياة الناس؟!»[1].

ولهذا كان ترك الدواء الطبيعي البسيط ـ إذا تكلمنا بلغة الطب ـ وهو الإسلام لإجراء «عملية اشتراكية جراحية» لأمتنا خطأ لا شك فيه، وهو خطأ جر عليها الآلام والأوجاع، وعرض صحتها بل حياتها للخطر.

وكان استيراد السلع العقائدية والنظم الأجنبية، مع وجود «مخزننا الوطني» المليء بخيراتنا الوفيرة إذا تكلمنا بلغة الاقتصاد والتجارة ـ وهو الإسلام ـ خطأ أيضاً لا ريب فيه.

إن العقائد الاجتماعية، والأيديولوجيات الفكرية لا تفرض على الناس من فوق، بحق القوة، بل الناس الذين يؤمنون بها هم الذين يفرضونها على أنفسهم بقوة الحق.

ومن هنا فشلت الاشتراكية الثورية التي فرضتها الانقلابات العسكرية بقوة الدبابات والمدرعات، كما فشلت الليبرالية الديمقراطية، التي فرضها الاستعمار أولاً بقوة سلطانه، وسلطان قوته، ثم فرضتها الحكومات الوطنية من بعده «بالفرمانات» الرسمية، والمراسيم الملكية!

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ٣.

خطأ جر إلى كل الأخطاء بعده:

لقد أخطأ اليساريون الاشتراكيون العرب في الاتجاه، كما أخطأ فيه الليبراليون اليمينيون من قبل.

وخطأ الاتجاه يعني أن كل المشروعات والتحركات والأعمال لا تؤدي أكلها، ولا تعطي ثمرتها المرجوّة.

إن الخطأ في الاتجاه، أشبه بمن يخطىء في اكتشاف الطريقة الصحيحة لحل مسألة حسابية، إنه قد يجمع ويطرح أو يضرب ويقسم بصورة سليمة، ولكن النتيجة ستكون خطأ حتماً، وسيكون الخطأ في الغالب جسيماً، لأن الخطوات كلها متشابكة، مترتب بعضها على بعض، فإذا بدأ الخطأ منذ الخطوة الأولى، لم يرجع الصواب بعد ذلك في سائر خطوات الحل، ولا في النتيجة النهائية أبداً.

المجتمع الإسلامي لا يدع إسلامه للاشتراكية:

لقد أخطأ الثوريون العرب أساساً في استيراد «العقيدة الاشتراكية» الدخيلة ليبنوا على أساسها حياة مجتمع مؤمن بالإسلام، فلهذا لم ينجحوا في تحقيق أهدافهم أنفسهم، ولا في تحقيق أهداف الأمة، وكان الفشل الدائم حليفهم.

أرادوا أن يصبوا في عروق الأمة العربية المسلمة دماء أجنبية غريبة بحجة التطعيم والتلقيح ونسوا أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال البسيط:

هل هذه الدماء الأجنبية موافقة لفصيلة الدم العربي المسلم أم مخالفة له؟؟ بل نسوا أن يسألوا أنفسهم سؤالاً سابقاً على ذلك، هو: هل الأمة في حاجة أصلاً إلى هذا الدم أم لا؟؟!

لقد أخفقت أيديولوجيتهم وحق لها أن تخفق، وفشل نظامهم وكان حتمياً أن يفشل. فمحال أن تنجح أيديولوجية أو نظام يُفْرَض على أمة تعتقد ـ بحكم تعاليم دينها ـ أنها تملك أمثل فلسفة لتفسير الوجود، وأكمل نظام لتوجيه الحياة، وأعدل شريعة لتسيير المجتمع.

محال أن تنجح هذه الأيديولوجية أو ذاك النظام المستورد، إلاَّ إذا أخلّت الأمة بالتزامها بدينها، ونقضت ـ جهرة ـ عهدها مع ربها، ورضيت لنفسها الكفر بالدين، والهوان في التاريخ، والعيش على التسوّل المقبوح!

ولو أن الأمة فعلت ذلك ورضيت أن تعيش في الحياة ذنباً لا رأساً، لكان هذا هو أول الخسران والضياع، لأن الأمة التي تخون دينها الحق، وحضارتها المثلى وتدع حقها لباطل غيرها، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير..

لا غرو بعد هذا أن يفشل الاشتراكيون الثوريون في تحقيق أهدافهم المتمثلة في شعارهم المثلث: الوحدة والحرية والاشتراكية التي فسروها بالكفاية والعدل.

ولا عجب أن يفشلوا في تحرير فلسطين، وأن يضيفوا إلى نكبتها القديمة الأولى، نكبة جديدة ثانية، أشد من الأولى وأعتى.

ولا عجب أن يفشلوا كذلك في تثبيت دعائم الأخلاق والفضائل، وفي تحقيق الاستقرار والطمأنينة في حياة البلاد.

وكل هذا الفشل نتيجة لخطئهم الأول والأكبر الذي قلناه من قبل، وهو: أنهم يضعون علاجاً لأمة لا يعرفون حقيقة مرضها، وبعبارة أخرى: لم يحددوا بالضبط: ما هي مشكلتها؟ ثم ما الطريق إلى حلّها؟

قال قوم: إن مشكلة أمتنا هي التجزئة وحلها في الوحدة.

وقال آخرون: بل مشكلتها في التخلف، وحله في التقدم.

وقال غيرهم: إنما مشكلتنا من الاستعمار في الخارج، والسيطرة من الداخل، وحل هذا وذاك في الحرية...

وقال غير هؤلاء وأولئك: ليست مشكلتنا غير الظلم الاجتماعي، وحله في العدالة الاجتماعية.

وكل هذه المشكلات واقعة، وحلولها المقترحة صحيحة، ولكن لماذا نطلبها من عند غيرنا؟ ولماذا نطلب لها أساساً أيديولوجياً غريباً عن روح أمتنا وعقائدها

وقيمها؟ ولماذا نصر على مد أيدينا لغيرنا وعندنا من رصيدنا المذخور ما يكفي ويغني؟!

لهذا كان الأهم من عرض شتى الحلول المذكورة أن تقوم على أساس نظري فلسفي أو أيديولوجي يمنح هذه الحلول روحاً وحيوية، ويربطها بضمير الأمة، فتنفذ إلى أعماق نفوسها، بدل أن تبقى طافية على سطح حياتها.

أصل المشكلة وحقيقة حلّها:

وذلك ينتهي بنا إلى بحث أصل المشكلة وجوهرها، إن مشكلة هذه الأمة الأساسية، إنها نسيت نفسها، وغفلت عن سر وجودها، وعاشت في «تيه فكري» لبّس عليها غايتها، وعمّى عليها طريقها وضللها عن وعي ذاتها، ورسالتها في هذه الحياة.

إنها أشبه بمن فقد ذاكرته في حادث، فلم يعد يعرف اسمه ولا نسبه ولا أصله ولا هويته ولا تاريخه، فعاش بشخصية هي ـ في الحقيقة ـ غير شخصيته الأصيلة: ماض مجهول وحاضر مضطرب، ومستقبل مبهم!

والإصلاح الحقيقي والجذري، والتغيير الثوري حقاً ـ إن استعرنا عبارات القوم ـ هو رد هذه الأمة إلى أصولها، إلى منابعها، وإخراجها من ذلك التيه الطويل، لتعود إلى اكتشاف نفسها، ومعرفة قدرها، وتتضح رؤيتها لغايتها وطريقها، وتعمل على تحقيق ذاتها، وإثبات وجودها.

العمل «الانقلابي» الكبير الذي تنتظره هذه الأمة هو إخراجها من «التبعية» الفكرية إلى «الاستقلال» الحقيقي ومن غبش الرؤية إلى وضوحها، ومن الذبذبة بين الاتجاهات والأيديولوجيات إلى أيديولوجية أصيلة متميزة، لا شرقية ولا غربية، ولا شيوعية ولا رأسمالية، ولن تجد هذه الأيديولوجية إلاَّ في الإسلام: رسالة السماء إليها، ورسالتها إلى أهل الأرض جميعاً، فـ«الحل الإسلامي» وحده هو سبيل الإنقاذ لها، وطريق الخلاص للبشرية من خلالها.

وهذا هو الدور الذي لم يجد بطله حتى اليوم بين حكام المسلمين، السابقين واللاحقين، وهذا ما تخشى القوى العالمية كلها ـ على اختلاف أديانها وأيديولوجياتها وسياساتها ـ أن يحدث، وما تعمل وتخطط للحيلولة دون وقوعه، ولهذا يجب أن تخنق كل حركة إسلامية رشيدة حتى لا يظهر يوماً «صلاح الدين» من جديد.

«الحل الإسلامي» هو سبيل الإنقاذ حتماً، ولكن ما معالم هذا الحل؟ وما خصائصه؟ وما شروطه؟ وما مكاسبنا من ورائه؟ وما الطريق إلى تحقيقه؟ فموعدنا لبيان ذلك كلها وتفصيله الجزء الثاني من سلسلة «حتمية الحل الإسلامي» إن شاء الله وعنوانه: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة».